مصر مهد الامة الاولى والحضارة الاولى

لسير ارنوكيت

في أواسط الألف الرابعة قبل الميلاد المسيحي ابتدأت قبائل مصر السفلى تندمج بعضها ببعض على الرغم من أن كلاً منها كانت ملازمة منطقتها — اندمجت تحت زعامة واحدة موفقة في إنشاء مملكة واحدة. وفي الوقت نفسه حدث مضارع لها في مصر العليا. فإن بعض عشرات من القبائل كانت منتشة كالخرزات في سلك على ضفّات النيل، من أسوان فما دون على مسافة ما ينوف عن ٣٠٠ ميل — اندمجت كلها في حكومة واحدة تحت سيطرة زعيم العشيرة الذي صار أخيراً ملك مصر العليا. وكان مقرّهُ في الضفّة الشرقية على بُعد ٤٠ ميلاً تحت المكان الذي تحتله اسوان الآن.

ومنذ القرن الأخير من الألف الرابعة قبل الميلاد (والمصطلح عليه عند المؤرخين ٣٣٠٠ قبل الميلاد) شبّت حرب بين الملكين انتصر فيها ملك مصر العليا. ويُقال انه قتل فيها ٦ آلاف من الجيش المكسور، وأخذ منه ١٢ ألف أسير. وهكذا جاءت الى الوجود الأمة الأولى (بالمعنى الذي نفهمه من كلمة أمة اليوم) التي علمنا خبرها. الأمة الأولى جاءت الى الوجود بحرب. فبرهنت الحرب على أنها «دابة» الأمة أو قابلتها أي مولدتها.

ماذا أعني بالأمة في المعنى الحديث؟

دعني أمثل على تعريفي للأمة بمصر القديمة — ١ — أنشئت لها حكومة مركزية واحدة — ٢ — الشعب الذي كان محكوماً كان يمثل قطراً واسعاً يمتد من البحر المتوسط الى الشلال الأول مسافة ٥٥٠ ميلاً تقطاير — ٣ — القبائل تناست رويداً فروقها المحلية وأصبحت تشعر كأنها أعضاء وحدة أهلية كبرى. وبعبارة أخرى حوّل الأهالي الى مركز الزعيم، «فرعون» بعض ولائهم أو كلهُ الذي كانوا يوجهونه الى رؤساء قبائلهم — ٤ — الحب المصري لوطنه شمل جميع البلاد التي كان يقطنها ناسه — ٥ — أصبح المصريون يشعرون إنهم أمة يفترقون عن سائر الأمم والشعوب — ٦ — ثم أصبحوا يتكلمون لساناً واحداً. ويشعرون أنهم يرثون نفس العادات ونفس التقاليد، وإنهم خاضعون لشريعة واحدة، وإنهم يؤمنون بنفس الآلهة. فجميع هذه الصفات كانت روابط الأمة — ٧ — أصبحوا واثقين ان سلامتهم الشخصية وضمانتها مرتبطة ببلادهم. وعلموا أن أمنهم القومي لا يشترى إلاّ بثمن الشخصية.

لجعل هذه الاحساسات متقدة في قلوبهم باستمرار لا بدّ من مرور عدّة أجيال.

والقدر المشترك لدول مصر الأولى . ففي مدة الدول الست الأولى التي استغرقت ٨٠٠ سنة كانت الأمة متحدة والحكومة قوية . وفي تلك المدة توالى أكثر من ٣٠ جيلاً . ولذلك يظن المطلع على هذا الكلام إن مرور هذا الزمن المديد على هذه الوحدة يجعلها عنصراً ثابتاً في تقاليد الأمة وأكثر التحاماً . ولكن الواقع برهن على أن الأمر ليس كذلك . فلما ضعفت الحكومة المركزية نهض شيوخ القبائل الى استلام القوة .

كيف حدث ان جماعات بابل القروية نمت الى ممالك مستقلة ، في حين أن هذه الجماعات في مصر اندمجت في وحدة شعبية واحدة ؟ — لذلك عدة أسباب أهمها تشتت البلاد الزراعية المتقفرة في مصر (البور) — الصحراء قاحة جداً الى شاطئ النيل ، بحيث لا يبقى إلا بقاع مخضلة للسكان . فليس للأقليات الثائرة جبال تلجأ اليها وتحتمي فيها . كانت جميع أسباب الرزق مكشوفة على ضفات النيل . فالحكومة المركزية تجعل النيل الطريق السلطاني لنقل قوة عسكرية كافية لقمع فتنة القبيلة الثائرة . وأظن هذا هو العامل الأول لجعل القبائل المصرية أمة واحدة . والعامل الآخر هو شعور الفلاح المصري نحو أرضه وانعطافه اليها . والقوم لكي يستقروا يجب أن يلازموا أرضهم . وأما في بابل فالفلاح يترك أرضه وقريته لكي يعيش في المدينة ويشارك أهلها في الصناعة والتجارة . أضف الى هذه الأسباب سبباً آخر هو عقلية المصريين القدماء . فقد كانوا أميل الى الطاعة والخضوع منهم الى الانقياد ، أو الى الائتمار منهم الى الأمر . وكانت قوة الابتكار والاختراع فيهم ضعيفة ، ولكنهم كانوا أذكياء في النسخ والاقتباس والتكييف . ولم تكن في عقليتهم روح المنافسة والمحاسدة . ففيما كان المصريون ضعفاء في هذه المواهب كان البابليون أقوياء فيها . وقليل من الخمير البابلي مع العجين المصري ينتج نتائج سعيدة . حدث في فجر المدنية شيء مثل هذا فعلاً

يفيدنا أن ننظر الى المصريين القدماء بعين صديقي وزميلي في فن التشريح الدكتور جرافتن اليوت سمث . ولد في استراليا وتخرج في كليتي الطب في سدني وفي كمبردج . وانتدب لاحتلال كرسي التشريح في كلية الطب في القاهرة سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٩ . وفي مدة اقامته في مصر توالت الاكتشافات الأثرية التي القت نوراً على تاريخ مصر القديم . وليس على تاريخ الدولة الأولى بين ٣٣٠٠ و ٣٢٠٠ فقط ، بل على ما سبقها من قبل التاريخ حتى أواسط الألف الخامسة قبل الميلاد . وبعد دراسة عميقة لسكان مصر قبل التاريخ سار الدكتور اليوت سمث متأثراً جداً من أهمية مدنيتهم وثقافتهم . وهكذا حفظت مصر في آثارها كل دور من أدوار تطورها ، حتى انه اقتنع بأن المدنية ولدت في شاطئ النيل ، وكان مهدها الأول هناك وليس في مكان آخر . وكانت له شجاعة وثقة

بنفسه حتى انه لم يستطع الصبر والسكوت عن أن يحول تفكير العالم الى نظريته [1] فاذا صح هذا كان كل ما صادفناه من الثقافة والرقي في ايران وبابل يرجع مصدره الى مصر.

بين الحربين العالميتين الأخيرتين تقدمت معارفنا عن ثقافة آسيا الغربية الجنوبية تقدماً مدهشاً — كان الوادي الهندي الطرف الأقصى من الثقافة والحضارة ومصر الطرف الآخر. إن موقع النجد الايراني الأوسط والحضارات الباكرة التي اكتشفت آثارها هناك ترجح لنا أن سكان هذا القسم من آسيا هم الذين انشأوا الحركة الحضارية والثقافية التي طوّرت الجنس البشري وجعلته جماعات. والمصريون والهنود كانوا مقتبسين أكثر منهم مبتكرين. أما مصر فليها أدلة على أنها كانت تتلقى مهاجرين من جهات مختلفة منذ القديم. في سنة ١٨٩٥ فتح سير مورجان الأثري الفرنسوي خمس مدافن غربي النيل قرب ابيدوس Abydos (أعلى عبيدية ؟) وهذه القبور القديمة يرجع تاريخها الى نصف الألف الخامسة قبل الميلاد. ويظن انه في ذلك الحين نقل السومريون Sumerians Abandon المدن العبيدي الى بابل. وقد وصف الدكتور فوكه الأشخاص الذين دفنوا في تلك القبور. وبحسب وصفه يختلفون اختلافاً بيناً عن المصريين الذين عاشوا قبل التاريخ، وكانوا من النمط الذي وجده السير ليونرد وُلي Leinard wooley في أور « الكلدانيين » (العراق). كانت لهم رؤوس ضخمة وأدمغة ذات حجم يضارع أدمغة الأوربيين اليوم، في حين أن أدمغة المصريين قبل التاريخ أقل مئة سنتيمتر مكعب عن أدمغة الأوربيين الحاليين. وهناك ثقافة أو حضارة أقدم هي حضارة Tasian التاسيان التي اكتشفها الأستاذ جاي برنتون Guy Brenton سنة ١٩٢٧ — ٢٩ في مصر الوسطى على الشاطىء الشرقي للنيل. وهي تنسب عادة للقسم الأول من الألف الخامسة قبل الميلاد. فتكون معاصرة للعبدية (الهلافية Halafian) فيما بين النهرين. وقد يمكن أن تكون في الألف السادسة قبل الميلاد. وكان التاسيون زراعيين، وأوصافهم الدماغية تدل على انهم من أصل أسيوي لا مصري. وأما أن آثار الفن الزراعي في مصر أقدم مما وجد منها في آسيا فمسألة فيها نظر. وحين أبحث جميع الأدلة في هذا الموضوع أحدد أن لآسيا حق الأولوية.

وأعتقد أو افترض ان سكان مصر في الألف السابقة قبل الميلاد كانوا ضمن قاع [2] (أو وادٍ) ضيق طوله نحو (٥٥٠) ميلاً، وجميع حواشيه تؤذن بالاستمرار وارتزاق السكان منها. ماذا كان عدد السكان حينئذٍ؟ وكيف كانوا منظمين؟ كان الفرد يحتاج ميلاً مربعاً من الأرض

(١) له كتاب بهذا الموضوع بعنوان « المصريون القدماء »

(٢) قاع اذا فضل تعبير عن وادي النيل هو لفظ قاع لان القاع هو السهل الواقع بين جبلين، والوادي منفرج بين جبلين او تلال أو آكام ويكون منتدأ السيل

المخصبة لأجل معيشته البدائية . أرض مصر المخصبة اليوم ١٢ ألف ميل مربع . فإذا أخذنا هذا القدر مقياساً للبر الصالح للارتزاق بجمع الغذاء (من غير زراعة) كان سكان مصر البدائيون حينذاك ١٢٠٠٠ نسمة ، وهو رقم أكثر من نصف الأرض الأوربية من مساحة الوادي المسمى الدلتا [1] وهي أقل من نصف ٥٥٠ طول الوادي . ولما كان الوادي أفضل مجال للصيد فنصيب نصف السكان للوادي وأصقعهم للدلتا . ستة آلاف ينتشرون جماعات على طول ٥٥٠ ميلاً ، فيصيب كل نسمة منهم ميل من النهر . ويحتمل أن الجماعة المحلية كانت تشغل تسعة أميال على طول الوادي ، وتكون حينئذٍ مؤلفة من ٩٠ نفساً من ذكور وإناث.

إذاً فكان سكان الوادي منقسمين الى نحو ٥٥٠ جماعة محلية مساوية في الحجم الى جماعات الوادي . وجميع هذه الجماعات تزيد على مئة وحدة تطورية مستقلة في مصر البدائية . وكان كلما ارتقت الزراعة تضخمت الجماعات المحلية حجماً . وكذلك كانت هذه الجماعات تقل عدداً بسبب اندماج معظمها بعضها ببعض ، الجارة بالجارة . وفي اثناء ما قبل العصر الدولي صارت هذه الجماعات المحلية تعرف باسم القبيلة أو العشيرة أو نحو ذلك .

أصبحنا الآن في موقف أن نفهم ما هو معنى التاجين (المملكتين العليا والسفلى) لدارس التطور الإنساني . إن سكان مصر الذين كانوا في العصر البدائي موزعين في عدد من الجماعات الصغيرة المستقلة ، اندمجوا في العصر الدولي في وحدة ضخمة واحدة . وبهذا الاتحاد قلّ التنازع بين الجماعات المحلية . ولكن أخطار التنازع بين البلاد وما وراء حدودها زادت واشتدت : ومن حسن حظ مصر أن موقعها ضد الأعداء الخارجيين كان منيعاً . فهي كانت محميّة من كل ناحية بصحراء ، ما عدا حدها الجنوبي حيث كان يهدّدها قبائل بربرية . ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط ، حيث هناك بحر أو برزخ برّي يجعل مستنقعات الدلتا مفتوحة لآسيا . فمن قبل العصر الدولي وما بعده كان هذا الممر الآسيوي طريق الغزاة لمصر والمهاجرين إليها .

بفضل طرق الري والفلاحة صار سكان مصر الذين قدّرناهم بنحو ١٢٠٠٠ نفس في العصر البدائي ، صاروا سبعة ملايين في عصر الحضارة . والميل المربع الذي كان يغذي فرداً واحداً أصبح يغذي ٥٨٠ نفساً . وفي يومنا الحاضر (١٩٤٦) يقدر سكان مصر بنحو ١٧ مليوناً (والصواب ٢٠ مليوناً) أي صار كل ميل يحتوي ١٤٠٠ نفس وهو مضاعف العدد في أكثر بلاد أوروبا ازدحاماً . وحين ننظر الى هذه التغيرات التطورية نراها مضطرين أن نسلم بأن المعول والمعزقة قد قلبا التطور البشري رأساً على عقب . [يتبع]

(١) الدلتا حرف يوناني يشبه المثلث ويقابل الدال العربية . وهي إذا وصل طرفاها بخط صارت مثلثاً